من تأصيل مفاهيم علم المعاني
إلى جمالية الخبر

الفصل الأول : حدود ومفاهيم

القسم الأول : النشأة والتأصيل.

القسم الثاني : تطور مفهوم الخبر والإنشاء.

القسم الثالث : إنزال أحدهما مكان الآخر.

الفصل الثاني : جمالية أسلوب الخبر

القسم الأول : مفهوم الخبر وأغراضه وأساليبه

القسم الثاني : أَضْرب الخبر ومؤكداته.

obeikandi.com

الفصل الأول

حدود ومفاهيم

القسم الأول : النشأة والتأصيل

كان للدراسات البلاغية والأدبية أثر عظيم في توضيح مسألة إعجاز القرآن عامة ومسألة التأليف وتوخي معاني النحو في النظم خاصة..... وكان الجاحظ (ت 255 هـ) قد آمن بأن نظم القرآن معجز كما في قوله: "وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به"[1].

وجاء باحثون بعده فتناولوا فكرة (إعجاز القرآن ونظمه وتأليفه) كأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت 306 هـ) وأبي سليمان محمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت 388 هـ) الذي رأى أن القرآن عمود البلاغة "التي تجمع لها هذه الصفات...."[2]. أما أبو الحسن علي بن عيسى الرُّمَّاني (ت 386هـ) فقد جعل القرآن أعلى مرتبة في حسن البيان وتعديل النظم[3] بينما ذهب أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت 403هـ) إلى أن القرآن معجز بالنظم؛ لأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب[4].

ثم كان كلام القاضي عبد الجبار الأسد آبادي (ت 415 هـ) أكثر بياناً عن وجوه الفصاحة و البلاغة في التأليف؛ وضمّ كلماته بعضها إلى بعض وقارنها بطريقة مخُصوصة تبعاً للصفات والمواضَعات الإعرابية ومواقعها من جهة النحو[5]. ثم ذهب مذهب الجاحظ في تفاضل البلاغة بين الناس بالتأليف لا بالمعاني[6].

وتسلم عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) مسألة إعجاز القرآن

obeikandl.com

ونظمه؛ فأطال الكلام فيها، وانتهى إلى أن التأليف أو النظم هو توخي معاني النحو[7]. وهذه تشتمل على الخبر وأركان الجملة (المسند والمسند إليه وأحوالهما) وعلى أبواب أخرى كلها كانت من الموضوعات التي أطلق عليها فيما بعدُ (علم المعاني) على الرغم من أن مصطلح (المعاني) كان شائعاً في غير ذلك.

وأكد الجرجاني أن العِبْرة ليست في معرفة قواعد النحو وحدها؛ بل فيما تقوم عليه من معانٍ وأغراض وأصول.... فالمزية لا تكمن في اللغة ومعرفتها ولكن المزية ما يؤدى بها من مواضعات؛ فليس النظم إلا معاني النحو، وليس معاني النحو إلا علم المعاني... وهذا كله قدم للدراسات البلاغية عامة ولعلم المعاني خاصة فوائد عظيمة. فمسألة الإعجاز القرآني صاحبة الفضل على (علم المعاني) في نضجه، وجعله أبرز أساليب الجملة الجمالية.... ولكي نتوصل إلى ذلك لا بد من تعريف له وإيضاح ما انتهى إليه عند البلاغيين العرب أمثال السَّكَّاكي (ت 626 هـ)، والقزويني (ت 739 هـ)، وسعد الدين التفتازاني (ت 792 هـ)[8].

ولعل الزمخشري (ت 538 هـ) أول من أشار إلى علم المعاني وعلم البيان في تفسيره المعروف (بالكشاف) حيث قال: "ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد بلغ في علمين مختصين بالقرآن؛ وهما: علم المعاني وعلم البيان"[9].

ولم يوضح الزمخشري المراد من علم المعاني أو علم البيان وإن طفق يوضح ما في القرآن من لطائف بلاغية بديعة تؤثر في النفوس وتحيط بمعانٍ سامية، بينما يرى الدكتور شوقي ضيف أن الزمخشري أول من ميز بين المصطلحين وقَسَّم البلاغة إلى معانٍ وبيان.

فالزمخشري ينظر بعين عبد القاهر الجرجاني في مفهومه لموضوعات علم المعاني كالخبر والإنشاء والإسناد؛ والقصر والفَصْل والوصل والإيجاز

والإطناب؛ والحذف والذكر؛ والتقديم والتأخير، وهو يمارس تفسيره لآيات القرآن دون أن تجتمع في نسق واحد.

وكذلك فعل فخر الدين الرازي (ت 606 هـ) الذي استعمل مصطلح (علم المعاني) ومصطلح (علم البيان) ولم يحدد دلالتهما، كما فعل سلفه الزمخشري[10].

وأخذ مصطلح (علم المعاني) وغيره يتضح على يد السَّكَّاكي بعد أن استعمل عبارات عديدة تدل عليه مثل (صناعة علم المعاني ـ علماء علم المعاني ـ أئمة علم المعاني)[11].

فهو أول من قسَّم البلاغة إلى (علم للمعاني، وعلم للبيان؛ ومحسنات لفظية ومعنوية). ولعل الموضوعات التي وردت عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) هي التي تشكل (علم المعاني) عند السكاكي، بينما موضوعات الجرجاني في كتابه (أسرار البلاغة) ـ من تشبيه ومجاز وكناية واستعارة؛ وكل ما يبحث في الصورة والخيال ـ تشكل (علم البيان) عند السكاكي، على حين أن المحسنات صار اسمها (البديع) عند بدر الدين بن مالك (ت 686 هـ)[12].

ولسنا الآن بصدد نقد السكاكي (ما له وما عليه) ولكننا بصدد تقسيمه للبلاغة التي ثبتت على رأيه بعده ـ غالباً .... وراعت تقسيماته لعلم المعاني ما يتعلق بالخبر وما يتعلق بالإسناد في الجملة وأحوال المسند والمسند إليه...

ولم نجد خروجاً كبيراً عند من جاء بعده في الحديث عن (علم المعاني) فالقزويني ـ مثلاً ـ (ت 739 هـ) يرفض تعريف السكاكي لعلم المعاني؛ وهو "تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"[13] ويثبت له تعريفاً آخر وهو الذي شاع في كتب البلاغة العربية: إنه

"علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال" [14] ويساق وفق الغرض الذي رُمي إليه. وقد وفّق في هذا التعريف أكثر من السكاكي، ولا شك في أنه أفاد منه؛ وقد تبين أن صورة الكلام تختلف لاختلاف الأحوال؛ وليس كما ذهب إليه السكاكي من (تتبع خواص التركيب...) لأن التتبع ليس بعلم ولا يصدق عليه تعريفه. وهذا كله يثبت أن علم المعاني أصيل في عملية الإدراك وتمييز الحقيقة وليس مجرد لغة بلاغية عادية.

وقد حاول القزويني حَصْر علم المعاني في ثمانية أبواب "أحوال الإسناد الخبري؛ أحوال المسند إليه؛ أحوال المسند، أحوال متعلقات الفعل، القصر؛ الإنشاء؛ الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب".

ولم يخرج القزويني ثم سعد الدين التفتازاني وآخرون عن منهج السكاكي كثيراً كما نجده في كتابه (عروس الأفراح)[15]. فقد تأصلت علوم البلاغة على قواعد محددة؛ وكذلك استقرت أبواب (علم المعاني) في الدراسات البلاغية على وجه معين تعتمد الاستقلال في كل باب منها ليلائم الدراسات البلاغية والأدبية..... فعَادت إلى ما أسسه عبد القاهر الجرجاني على نحو ما... في التمييز بين كل نمط من أنماطها؛ لكنها اتخذت لديهم غالباً جانب التقعيد الجاف؛ على عكس الجرجاني الذي عُني بالجانب البلاغي الجمالي المستند إلى النقد التذوقي واللغوي، على الأغلب[16]. وهو نقد يستظهر المبادئ الجمالية المعروفة لدينا كالاتساق والدقة في الاختيار والجودة في التأليف وارتباط التركيب عامة بالمضمون في وحدة فنية متكاملة. فالصورة اللغوية لديه كالجسم أو الآلة التي تنتظم في وظيفة محددة.

فالجرجاني أطلق الحديث عن المعاني الأُول والمعاني الثواني وعزز فعل الكتابة بالاصطفاء المعنوي البليغ.... وأوضح مدى القدرة الإبداعية للغتنا على الاستجابة الجمالية للأشكال الدافعة للكلمات في التأثير والتحول الدلالي.

فقد استطاع أن يضع مباحث علم النحو في دائرة التوهج البلاغي؛ حين وجه ذلك في اتجاه مزدوج إذ لا فصل بين معاني النّحو، وعلم المعاني فحقق لنا أنموذجاً فذاً في الدرس البلاغي وكشف عن حقيقة الإعجاز الأدبي واللغوي للنسق القرآني. فالمعاني المؤلفة تشكل لديه أساس البنية الفكرية؛ وعناصر التكوين البلاغي والجمالي... فانتقل بنا من الحديث عن المعنى إلى الحديث عن معنى المعنى.

ولهذا يمكننا تصنيف مباحث عبد القاهر تحت مصطلح "فلسفة البلاغة وماهيتها" لأنه نظر إلى الأثر المكون للبنية التركيبية بذاته ومن ثم عند المتكلم والمخاطب أما الصورة فهي ((تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا))[17].

ثم استنبط الزمخشري قواعد علم المعاني، وعلم البيان من عبد القاهر ومارسها تطبيقياً في تفسيره للقرآن الكريم في كتابه المشهور (الكشاف).

ولّما جاء السكاكي (ت 626 هـ) استخلص قوانين (علم المعاني) فكانت هي هي التي رأيناها عند سابقيه، ولكنه قعَّدها بشكل صارم، وكذلك فعل بعلم البيان. ثم جاء حازم القرطاجني (ت 684 هـ) فأفاد من الجميع في نظرته البلاغية والنقدية للشعر العربي؛ فضلاً عن تأثره بأرسطو... فأبدع نظرية التناسب في كتابه (منهاج البلغاء).

وفي ضوء ذلك كله نشير إلى مفهوم الجملة وركنيها وانقسامها إلى اسمية وفعلية من جهة البلاغة لا النحو، ومن ثم معالجتها في باب من أبواب علم المعاني المعروفة بستة أبواب: "الخبر والإنشاء، التقديم والتأخير، الوصول والفصل؛ القصر، الذكر والحذف، الإيجاز والإطناب". وسنختار باب الخبر والإنشاء؛ ونقتصر من الإنشاء على الطلبي منه؛ إمعاناً في عدم إثقال حجم البحث؛ ونظراً لأن إبراز جمالية الكلمة تظهر في كل شكل من الأشكال؛ وهذا ما لا يستطيع بحث واحد أن يحيط به.... لأن الشكل في أي حيِّز تركيبي هو

تضمين لمعنى يحوز فعالية خاصة في إطار العلاقات المنعقدة فيه.... ومن هنا يوجد معنى حاضر وآخر مستتر توحي به تلك العلاقات السياقية. وهو يحتاج إلى دراسات مستفيضة...

ولهذا فكل من يتعامل مع البلاغة العربية؛ لا بد له من أن يتجه إلى المعنى المستتر؛ أو ما عرف بالمجازي وهو معنى يكتسب أهميته من جنس التصوير، وتخيُّر لذيذ اللفظ الموحي وصياغته في تأليف مكثف ومثير يشاكل كل كلمة في عقدها وحسن صورتها. وبهذا فهو ينتقل من بنية جمالية إلى بنية جمالية أخرى تؤسس لعلاقة فاعلة بين الأسلوب البلاغي والمتلقي... ولعل هذا كله يجعله ينأى بعيداً عن الرؤية النقدية القديمة، ومن ثم لا يقع في تبعة تقليد كل ما يأتي من الغرب. فالتأمل النقدي الجمالي لأي أسلوب بلاغي في كلام العرب يتيح للناقد القوة على الغوص في جوهر الأسلوب اللغوي والبلاغي؛ ومن ثم إدراك الجوهر المشرق والمثير في النص الذي يعالجه... أياً كانت طبيعته التركيبية. وهذا ما نسعى إليه في جمالية الخبر والإنشاء، ونبدأ بمفهومهما.

القسم الثاني: تطور مفهوم الخبر والإنشاء

إذا استكملت الجملة ركنيها (المسند إليه والمسند) ذكراً أو تقديراً، كان المعنى هو المعول عليه؛ وهو لا ينفصل عن قصد المتكلم وإرادة إفادة السامع به وإمتاعه وإثارة عاطفته... وكل منا يعرف أن الأسلوبية -في الشعر -تركز على الكثافة الشعرية التي يكتسبها الخطاب.

ومن هنا تصبح القيود التي ترافق الجملة ذات غاية كبرى في عمليتي الإمتاع والإفادة؛ وتتنوع الجملة وتتعدد صياغتها بين الخبر والطلب، والتقديم والتأخير، والقصر، والفصل والوصل، والذكر والحذف... على تداخل ذلك بعضه في بعض.

ولهذا وقف الجاحظ (ت 255 هـ) مبيناً بلاغة الجملة وجماليتها المتعة كما في قوله: "ومتى شاكل - أبقاك الله - اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وَفْقاً، ولذلك القدر لِفْقاً، وخرج عن سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف كان قميناً بحسن الموقع وبانتفاع المستمع... وأن لا تزال به القلوب معمورة، والصدور مأهولة..." وهو القائل أيضاً: ((المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء... فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير)) [18].

وهذه الصورة من التخيل البلاغي عند الجاحظ أسبق إلى الظهور في (علم المعاني) ولا سيما الخبر والإنشاء؛ لأنه يعد أبرز أبوابه، وكذلك هو عند الجرجاني وغيره، ما يعني أن أكثر كلام العرب طلبٌ وخبر ملونان بالعاطفة والأفكار. وبهذا سبق كولردج في حديثه عن علاقة الصورة بالخيال والعاطفة[19].

وقد سبقت الإشارة إلى أن علم المعاني ظهر في رحاب الدراسات القرآنية؛ وكان لأهل الاعتزال والكلام نظرات في نظام القرآن، فذهبوا إلى أنه أمر ونهي وخبر... ومن ثم نظروا في مسألة الصدق والكذب من جهة ذلك فانتهت عند المتأخرين إلى أنها قضية مُرتبطة بمطابقة الخبر (الحكم) للواقع بغض النظر عن قائلها. وكان أبو إسحاق إبراهيم بن سَيَّار النَّظَّام (ت 221 هـ) قد ربطها بالمتكلم؛ فصِدْق الخبر مطابقة حكمه لاعتقاد المتكلم صواباً كان أم خطأ، وكذبه مطابقة حكمه له. فمن أخبر بخبر معتقداً بصحته، ثم ظهر بخلاف الواقع ما كذب ولكن أخطأ... أما كذب المنافقين في قوله تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا: نَشهدُ؛ إنك لرسولُ الله..." (المنافقون 1/63) فإنه مطابق للواقع لأن النبي الكريم رسول الله حقاً وصدقاً وعدلاً؛ ولكنهم يكذبون في قولهم المناقض لاعتقادهم؛ فهم في قرارة أنفسهم لا يعتقدون به رسولاً، ولهذا أعلن الله كذبهم صراحة في ختام الآية ﴿والله يشهد: إن المنافقين

لكاذبون﴾.

فالتشكيل الجمالي ـ هنا ـ ينبثق من الوصف السردي الدقيق للواقع النفسي والفكري لحال القوم كما ينبثق من الحركة المنسجمة بين قيمة التركيب وما توحيه من تداعيات نفسية عند المتلقي؛ ما يجعلها تحقق التوازن الجمالي لديه.

وبهذا كله يربط النَّظَّام مسألة الصدق والكذب خبراً وإنشاءً باعتقاد المتكلم لا بمطابقة الكلام للواقع. أي إنه يستند إلى التفكير الأسلوبي المبني على ثلاث قواعد المتكلم والمتلقي والرسالة... ما يؤكد أن التأويل يختلف تبعاً لكل منها، ووفق ما يذهب إليه الناقد. أما الجاحظ فقد أنكر انحصار الجملة بالصدق والكذب، ورأى أن الحكم الموجود في الكلام ثلاثة أقسام:

1 ـ خبر صادق: وهو المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه مطابق له.

2 ـ خبر كاذب: وهو ما لا يطابق الواقع مع الاعتقاد بأنه غير مطابق له.

3 ـ خبر غير صادق ولا كاذب؛ وهو أربعة أقسام:

أ ـ خبر مطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه غير مطابق له.

ب ـ الخبر المطابق للواقع بلا اعتقاد.

ج ـ الخبر غير المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه مطابق له.

د ـ الخبر غير المطابق للواقع بلا اعتقاد[20].

فالمتكلم يمتلك رؤية عقلية يدرك بها ما لم يدرك بالحواس في تصوره لاجتماع عناصر السياق البلاغي والجمالي وصياغتها. وقد شارك أهل الأدب والبلاغة في الحديث عن مسألة الصدق والكذب في الخبر والإنشاء كابن قتيبة (ت 276 هـ) الذي رأى أن الكلام أربعة: أَمرٌ وخَبر واستخبار ورغبة؛ ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب؛ وهي الأمر والاستخبار والرغبة؛ وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخَبر[21]. وأياً ما تكن صحة الخبر أو ابتعاده عنها فالجمالية لا تكمن في أيٍّ منهما من جهة التصنيف وإنما تنبثق من جهة

الإثارة العاطفية والعقلية وتوليد المشاعر حول أي منهما.

وبناءً على هذا الفهم فإننا نرى أن أبا الحسن إسحاق بن إبراهيم بن وهب قد قسم الكلام إلى خبر وطلب، فالخبر قول لم يكن عند المستمع علم به وأُفيد به، والطلب كل ما طلبته من غيرك[22]. فهو ينطلق في تصوّره البلاغي من الربط الحقيقي بين الأسلوب البلاغي وماهيته، ومن ثم يترك عملية الكشف عن جمالياته ودلائله للمتلقي.

وتحدَّث أحمد بن فارس (ت 395 هـ) في كتابه (الصاحبي) عن معاني الكلام ورأى أنها عشرة أبواب (خبر واستخبار، وأمر ونهي، ودعاء وطلب، وعرض وتحضيض؛ وتمنٍّ وتعجّب) ثم قال: "أما أهل اللغة فلا يقولون في الخبر أكثر من أنه إعلام: تقول: أخبرته أُخبره؛ والخبر هو العِلْم. وأهل النظر يقولون: الخبر ما جاز تصديق قائله أو تكذيبه، وهو إفادة المخاطب أمراً في ماض من زمان أو مستقبل، أو دائم"[23].

ثم جاء المتأخرون من البلاغيين فعرضوا تلك الأقوال والآراء على النظر وأخذوا يفرّقون بين الكلام الخبري، والكلام الإنشائي، ويفنّدون المزاعم التي تقدمت، بعد أن كان الحديث متداخلاً عن الخبر والإنشاء.

فالسكاكي قد ناقش ذلك وانتهى إلى أن الخبر والطلب مستغنيان عن التعريف الحدّي[24] والخطيب القزويني توقف طويلاً عند آراء النَّظَّام والجاحظ وغيرهما وردَّها، مؤسساً لرأيه بقوله: "اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب، فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما؛ ثم اختلفوا. فقال الأكثر منهم: صِدْقُه مطابقةُ حكمه للواقع، وكِذْبه عدمُ مطابقةِ حكمه له. هذا هو المشهور وعليه التعويل"[25].

فالقزويني يذهب مذهب الجمهور وكذلك ذهب كل من جاء بعده، وكل منهم يرى أَن الخبر متماهٍ في الفكر والحس لإيجاد علاقة بلاغية جمالية موحية أكثر منها علاقة مباشرة. وكذلك كان (يحيى بن حمزة العلوي -ت749

هـ) في كتابه (الطراز) الذي يعد خلاصة البلاغة العربية، وبخاصة بعد أن اعتمد مدرسة الكلام؛ وساق أدلته البلاغية مؤيدة بالنصوص القرآنية، والأحاديث الشريفة وكلام الإمام (علي) -رضي الله عنه - بيد أنه لم يلجأ إلى إيضاح مواطن الجمال والبلاغة الأسلوبية.

وفي ضوء ما تقدم اتضح لنا أن مسألة الصدق والكذب في الجملة من جهة الحكم تقوم عند المعتزلة - غالباً - على اعتبارها لذاتها بغض النظر عن قائلها؛ وحتى لا يقعوا في الحَرَج أخرجوا القرآن الكريم والحديث الشريف والمُسَلَّمات الثابتة من تلك المسألة فاستراحوا؛ لأنهم جعلوها صادقة بعلم مسبق.

وإذا تأملنا بالنظر بنية الجملة باعتبار قائلها في ذاته اعتقاداً وتصوراً ومشاعر؛ في حال الإثبات أو النفي للكلام لزمنا أن نتساءل: هل بالضرورة إذا كان المتكلم كاذباً حقيقة ألا ينقل إلينا خبراً صحيحاً؛ أو إذا كان صادقاً ألا يتعمَّد نقل خبر كاذب لأمر ما في نفسه، أو أنه ينقل خبراً كاذباً دون أن يدري بكذبه ومخالفته للواقع؟

فالصادق قد يستقر في ذهنه خبر ما، وينقله إلينا ثم يظهر أنه بخلاف الواقع؛ هل نقول عنه: إنه كاذب؟. ولو نقل الكاذب خبراً ما؛ وظهرت مطابقته للواقع هل نقول عنه: إنه صادق؛ وهو المشهور بالكذب، وما نقله إلا متعمداً الكذب لأنه لم يعرف أنه صادق؟

ولو افترضنا جدلاً أن هناك أحداً قال: هذا يوم شديد الحَرّ - وهو ليس كذلك في الواقع، ونحن نشعر بأنه ليس شديد الحرارة - فهل نقول له: إنه كاذب؟ فلو كان شعوره نفسياً بالحَرّ، أو كان مريضاً بالحمى، فهل يعني قوله ذاك أنه كاذب، بينما إحساسه صادق وعبارته مطابقة لاعتقاده ومشاعره...؟

وماذا نقول في بيت المتنبي الآتي؟:

لا أَشْرئِبُّ إلى ما لم يَفُتْ طمعاً ولا أَبيتُ على ما فات حَسْرانا؟!

obeikandi.com

إنه لا يتطلع إلى شيء، ولا يتحسر على ما فاته وكل ما قاله يندرج تحت الممكن في الواقع؛ ويقوم به كثير من الناس.

فهل نتهمه بالكذب؛ وهو من كان يسعى وراء المجد والعظمة أينما لاح له، ومضى من أجله إلى كافور الإخشيدي في مصر؟ وهل يمكننا أن نصفه بالصدق باعتبار مشاعره وتصوره واعتقاده أم نصف الكلام بالصدق أو الكذب باعتبار مطابقته للواقع حيناً ومخالفته له حيناً آخر، وتبعاً لتصور السامعين؛ وكنا قد أشرنا إلى أن الأسلوب البلاغي يمثل الرسالة بين المتكلم والمخاطب؛ والحدود الثلاثة هي التي تؤسس لمفهوم الصدق والكذب؛ ولا يجوز التغشية على حدٍّ منها لحساب حدٍّ آخر؟! ثم إن المتنبي ينقل ما يستشعر به ويعتقده بهذا الأسلوب الذي اعتمده من أساليب النفي بعكس أبي نواس الذي استند إلى جملة خبرية كاملة في قوله:

الـــرِّزْقُ والحِرْمـــانُ مَجْراهمـــا بمَـــا قضَـــى اللهُ ومـــا قَـــدَّرا

هل نقول له: إنه كاذب؛ لأن المال يجري بين يديه؛ وهو ثمرة عطاء بعض الخلفاء والأمراء؛ كلما مدحهم،؟ أم هل نقول له: إنه صادق؛ لأن الخبر مطابق للمعتقد الديني السائد في المجتمع، ولم يطابق الواقع الحقيقي لكثير من الفقراء الذين يتضوّرون جوعاً، ولا يجدون لقمة عيشهم؟.

إن التحليل المتوازن لآراء القدماء جميعها؛ والنظر في كلام العرب؛ والدرس البلاغي الجمالي النقدي والمنطقي يدعونا إلى إثبات أن أسلوب الإنشاء والخبر بما انتهى إليه قديماً وحديثاً لا يقاس وفق مطابقة الكلام للواقع أو مخالفته؛ لنحكم عليه بالصدق أو الكذب؛ ولا يقاس استناداً إلى قائله إن كان صادقاً أو كاذباً؛ وإنما يقاس بوصف اعتقاد القائل في مشاعره وتصوره أولاً؛ وبوصف مطابقة الكلام للواقع الفني قبل الواقع الحقيقي والطبيعي والفكري... ثانياً وبوصف قراءة الرسالة قراءة موضوعية لما تؤسسه من اعتقاد ثالثاً.

فنحن نقوِّم الكلام في إطار مدى تعبير الخبر أو الإنشاء عن عواطف القائل واعتقاده وتصوره وتطلعاته... ومدى قدرة تعبيره على إمتاعنا وإفادتنا. فالصدق أو الكذب في الجملة ـ بهذا الوعي ـ ليسا مرتبطين بالقائل وحده، ولا بالواقع وحده ولا بالسامع وحده؛ وإنما مرتبط بهم جميعاً وبجمالية التعبير وقدرته على الإمتاع والإفادة. فهو ثمرة ما يحدثه وينهض به من المعاني والمشاعر المعتمدة على القرائن الدالة، بعد أن أقام عملية توازن مع ما يعرف بمطابقة مقتضى الحال.

هذه هي الجمالية الجديدة لكيفية دراسة علم المعاني عامة والخبر والإنشاء خاصة وإن وُضِعَا لأغراض محددة ومثيرة، أو غير محددة انتهى إليها البلاغيون...

وإننا لنعتقد بأننا نضيف بعداً جديداً لمسألة الصدق والكذب على أنها مسألة جمالية في الجملة ترتبط بالواقع الفني... ويكون الحكم النهائي بلاغياً على هذا الأساس. فالجملة بمقدار ما تمتعنا جمالياً وتحقق لدينا نَشْوة عاطفية عالية، وتأملاً فكرياً عريضاً تكون صادقة... ولا يعيبها الوضوح والدقة أو الهدف الذي تسعى إليه... وهي بمقدار ما تكون مباشرة وجافة و سقيمة و نابية؛ ومزيّفة للهدف والواقع الفني... تكون كاذبة وتسقط جماليتها... دون أن ننكر وجود العديد من الصور التقريرية التي فاجأتنا بجماليات ما في نبرتها الخطابية أو السردية، وفي إيحاءاتها لدلالات كثيرة توقظ القلب الغافي ولا سيما في القرآن. هذا هو مقياسنا للدرس البلاغي في الخبر والإنشاء؛ على الرغم من أننا نفيد من البلاغيين العرب في الابتداء بالحديث عن الخبر ثم الإنشاء بفروعه وأقسامه، ومن ثم التركيز على الأساليب المجازية... دون أن ننكر التداخل فيما بينها. فالخبر يشتمل على ضروب كثيرة من الإنشاء وغيره... وكذا القَصْر، أو الذكر والحذف يشتمل على الخبر والإنشاء وغيرهما... ولكن الدرس البلاغي يقتضي التفريع للتيسير، والوصول إلى تناول كل أسلوب بدقة وفهم كاملين، وبيان سماته الجمالية...

ولذلك كله لزمنا أن نتحدث في التمهيد عن إنزال الخبر مكان الإنشاء والعكس صحيح؛ وإن كان المقام يقتضي أن نتحدث عنهما في آخر الكلام.... ولكننا حين أفردنا تمهيداً لوجوه الالتقاء والافتراق كان المقام هنا أَوْلى، لأن مفهوم التبادل في الأساليب اللغوية يؤصّل لدلالات بعيدة ودقيقة في العلاقة التبادلية بين أسلوب وآخر؛ الأول لغوي والثاني بلاغي نقدي؛ وكلاهما ينتقل إلى جماليات عاطفية فكرية عظيمة تعتلج في ذات المتلقي، وكان شيء منها – على نحو ما - قد خطر في نفس المتكلم. فهو يعيش في حالة توتر داخلي منذ تلقيه لحالة الخطاب أو الموقف الذي يواجهه... ولهذا يغدو النمط الأسلوبي اللغوي موازاة فنية لذلك كله بكل خصائصه الجمالية...

وهذا يعني أن المتكلم/المبدع ينتج أسلوباً جمالياً فريداً يتمثل في طبيعة الحركة اللغوية التي تناظر الانفعال والموقف والمخاطب؛ أي يغدو التناغم العاطفي الفكري حركة لغوية يتولّد منها أسلوب بلاغي يسمى إنزال شيء مكان آخر.... وأي حركة - في هذا الإطار - ينبثق منها تجربة بلاغية، بل لنقل: تجربة نقدية جمالية متميزة؛ بوصف النقد في جوهره الأصيل عملية خَلْق رؤية فنية وفكرية مستمدة من التشخيص الدقيق للأسلوب والدقة في فهمه والعمق في تحليله...

ولعل البلاغة العربية مثلها مثل عدد من الأجناس الأدبية واللغوية والنقدية الحديثة قد أُصيبت بخلط غريب شوّش معطياتها وطبيعتها، وهو اختلاط يحمل في داخله كل ما يثير الأسى ويبكي النفس... وهذا ما دعانا إلى استجلاب الدرس البلاغي العربي القديم، ومحاولة فهمه وتذوقه وتحليله في نماذجه الأصيلة، ومعايرته مع المناهج النقدية والإفادة من كل ما من شأنه أن يبين خصائصه ويثريه من أفكار الأسلوبية الجديدة دون إخراجه عن طبيعته. فالنقد البلاغي - لدينا - يستند إلى منهج جديد في التحليل النقدي الجمالي الأصيل والمعاصر دون أن يتخلى لحظة واحدة عن التذوق؛ والتأمل الطويل ومن ثم إدراك عناصر الرؤى المتعددة القديمة لأهل اللغة والنحو، وللبلاغة الأدبية، والبلاغة

القرآنية. فإذا كانت الصحة في الكلام هي المبتدأ فإن فهمه واستخلاص معانيه وخصائصه هي الخبر؛ والجواب؛ أما بهاؤه ورونقه فهو جزء من عناصره الجمالية... وإذا كان علم النحو هو الأصل الذي قام عليه علم البلاغة -ومن الأخير اشتق علم المعاني ونما وتطور وارتقى -فإن العلم الثاني (علم البلاغة) لم يعد متطابقاً مع الأول؛ ولا مشابهاً له على أهمية العلاقة الجوهرية التي تربط بينهما أسلوبياً وجمالياً... ويمكننا أن نتبين ذلك فيما يأتي.

***

obeikandl.com

القسم الثالث: إنزال الخبر منزلة الإنشاء أو العكس

لعل هذا الأسلوب ينطوي على جمالية كبرى حين يمارس المتكلم مفهوم الانزياح الأسلوبي؛ والبلاغي للوصول إلى معنى ثابت لا يحتمل الصدق والكذب؛ وهو حادث لا محالة، وإن تحقق أحياناً بعد النطق فيه، أي هو موجود ومطابق للوجود قبل الكلام وبعده. وقد رأى عدد من علماء البلاغة أن معرفة مضمون الخبر وكمال العلم فيه حصول مقتضاه. ولهذا فجمالية الانزياح فيه ذات نكهة خاصة لا تبتعد عما هي عليه في عدد من أساليب البلاغة كالتعريف والتنكير، والذكر والحذف والتقديم والتأخير... ولا سيما حين يتجلى الانحراف في معيار النسق اللغوي والاتجاه به إلى التعبير عما يجري في النفس، وعما يرمي إليه المتكلم من مقاصد وفق مراعاة مقتضى الحال والمقام.... وهذا كله يحدد معيار فصاحته وبلاغته في إطار الجوار والاختيار ما يؤكد أنه انزياح معياري وإن كان غير مقصود في بعض الأحيان.

ولعله قد تأكد لنا أن جمال البلاغة، وثراء أساليبها لدى العرب لا يتعرض للشيء في تجلياته الظاهرة المباشرة في الغالب، وإنما يجسّد نمطاً من التفكير الراقي المتطور في إطار التحولات النفسية والفكرية.... ثم الفنية للعرب، وينفي عنهم فكرة الجمود عند الظواهر المادية والتعلق بوصفها... فقد اتهموا "بالمادية المفرطة، وبضعف الخيال؛ وجمود العواطف" فالحساسية التعبيرية البلاغية تجسد في صيغتها اللغوية محتواها التأثيري والفكري المنطلق من واقع لغوي واجتماعي وثقافي وهو ما انتهى إليه كثير من الدارسين المحدثين[26].

وما من أحد لا يرى أن الذائقة الأدبية، ومن ثم البلاغية قد تطورت من العصر الجاهلي حتى اليوم... فالشعراء في بداية العصر الجاهلي - كونهم قادة الفكر والبلاغة - اعتمدوا - غالباً - الذائقة الحسية المادية، ثم إن هذه الذائقة ارتقت شيئاً فشيئاً من الوصف المادي والظاهري للأشياء إلى التفكير الحسي

بها على يد زهير والنابغة الذبياني والحطيئة وكعب بن زهير وأمثالهم... ثم ما لبثت أن مزجت بين التفكير الحسي والمعنوي والذهني المجرد... ما جعل العرب يتهيؤون في أواخر العصر الجاهلي لنزول الإسلام وتعاليمه القائمة على المفاهيم المجردة... بل إن العمل الفني نفسه لم يعد مجرد نتاج الوسط الطبيعي المحيط، وإنما أصبح لوحة فنية متكاملة العناصر، تبدل هذا العنصر مكان ذاك، وتجري عملية تغيير ذهنية كبيرة بينها، وهي تستجيب لعالم نفسي واجتماعي وفكري لا حدود له؛ إذ حقق لها خلق حالة فنية جمالية مثيرة. وهذا كله يعزز لدينا مفهوم الأثر غير المحدود لأي أسلوب بلاغي بما يتضمنه من خصائص لغوية وتشكيلات فنية تلاقي ما يثيره أسلوب آخر، ولكل جمالياته.

وفي هذا المقام كانت أساليب التعبير تواكب ذلك كله وتستجيب هي الأخرى لكل ما يحدث في عملية البناء الفني... وكان المتكلم ينزل الخبر منزلة الإنشاء والعكس صحيح بصورة فطرية تلبي نزوعه النفسي والفكري والفني... ثم تطور الأمر بعيداً بوفود الثقافات وتطور الأساليب... فتجاوزت الرؤية البلاغية والجمالية الجديدة تلك الرؤى القديمة التي عبر عنها شعراء الجاهلية ثم شعراء العصر الإسلامي... وإن ظلت على صلة كبرى بها؛ أي إن العمل الفني أو البلاغي في قيمته التعبيرية أساس اسكناه الشحنة الشعورية، والرؤية الفكرية، ما يعطي الانزياح فيها مكانة خاصة. وتظل التجربة الجمالية القرآنية متفردة في هذا السياق لأنها كانت الأبرز في تطور المفهوم البلاغي عند العرب؛ على أهمية ما وفد إليهم من الآخرين.

وبهذا كله تعدُّ التجربة البلاغية تجربة عربية غنية ومستندة إلى الأسس التي بُنيت عليها التجربة الأدبية.... فقد صارت البلاغة بحق علم الجمال الفني الأدبي المستند إلى مفاهيم مستخلصة من تراث العرب وأشعارهم[27]. فحين تحدث القاضي عبد الجبار عن الفصاحة أوضح جماليتها في طريقة أداء المعنى في الأسلوب البليغ عند العرب من الجاهلية حتى عصره... وذهب إلى أن اللفظة ليست جميلة بذاتها، ولا تستطيع أن تكشف عن أسباب روعتها إلا في ضوء

صفات ثلاث قائمة في السياق والتصوّر لها:

1 ـ الاختيار الدقيق والمناسب لها بين أخواتها.

2 ـ شدة تعلقها بغيرها من جهة التركيب، وما يوحيه من فروق دلالية في عملية التبادل اللغوي؛ حين يقوم لفظ مقام آخر، أو تركيب مقام تركيب.

3 ـ موقعها من جهة الصياغة تؤدي إلى إبراز دلالتها على الوجه المراد. وهنا تكمن أهمية أساليب البلاغة واللغة مثل التقديم والتأخير، والحذف والذكر؛ وإنزال الخبر مكان الإنشاء...[28].

وهذا كله يعطيها بعداً جمالياً فريداً في عملية الانزياح اللغوي والبلاغي وتنوع الأسلوب الذي يسعى صاحبه جاهداً إلى إقامة الوحدة والتجانس... ليحقق الوظيفة التي يتوخاها المتكلم. فإنزال الخبر منزلة الإنشاء أو العكس يؤدي إلى انحراف المتكلم عن أسلوب إلى أسلوب ليدل على معان ليست له في الأصل..... وبهذا يختلف عن الأسلوب المباشر المعروف الذي يأخذ سماته المميزة له، والثابتة فيه. فذلك الأسلوب البلاغي يكسب الجملة أبعاداً فكرية ونفسية جديدة، وتتجاوز الحدود المعروفة والمشهورة لعملية الدلالة... إن القدرة اللغوية والبلاغية التي تتصف بها العربية؛ والسليقة التي يحملها العربي تكمنان وراء هذا الأسلوب البلاغي الذي يُعد وسيلة جديدة لاستخراج ما في النفس البشرية من أطياف فكرية وإيحاءات نفسية عاطفية...

ومن هنا يصبح لزاماً علينا أن نبين المواضع التي يقع فيها الخبر موقع الإنشاء ومن ثم العكس؛ لأن فيها مستويات لغوية بلاغية لم تلق العناية من قبل على الوجه الدقيق... وسيقت في إطار العرض السريع وربما الساذج.

1 ـ إنزال الخبر منزلة الإنشاء

يُقْصد بهذا الأسلوب أن صياغة الجملة صياغة خبرية ولكن دلالتها دلالة إنشائية، وتؤدي وظيفة ما من وظائف الأساليب الإنشائية التي ستمر بنا، ولها أغراض عدة منها:

1 ــ التفاؤل :

التفاؤل ضد التشاؤم والتطيّر، تفاءلت به: رجوت فيه الخَيْر وأَمَّلته عنده... لهذا حين يتخيل المتكلم أن الخبر حاصل عنده، أو عند المخاطب، أو حين يتعلق به تعلقاً شديداً حتى يظن حدوثه فإنه يستعمل له الأسلوب الخبري، ويختار له الفعل الماضي المثبت... كأن نقول للضَّال عن أمر الله: (هداك الله لصالح الأعمال)... فالمراد: كأن الهداية قد حصلت حقاً؛ ولذلك استعمل لفظ الفعل الماضي على التقرير والتحقيق... بدلاً من أسلوب الإنشاء في الدعاء وغيره... ومثله قولنا لمن نُحب من الناس: (أذاقك الله حلاوة النجاح والتفوق). فالمراد: كأن حلاوة التفوق وقعت فعلاً... ولم تكن من باب التمني أو الرجاء... ومثل ذلك قولنا للمتردد في أمر لم يصل فيه إلى اليقين: (عُصِمتَ من الحَيْرَة؛ وحَبَّبَ الله إليك التثبت على الحق..) وقولنا للمخطئ الذي جانبه الصواب: (أصلحك الله).

فالتفاؤل بحدوث ذلك كله أخرج الدلالة من أسلوب الإنشاء إلى أسلوب الخبر وكأن المعنى واقع لا محالة، فمارس عملية الهدم والبناء في البنية التركيبية من خلال انزياح أسلوب بلاغي جمالي ليحدث في النفس والفكر الفتنة الجمالية. فالتكثيف في الوظيفة الحقيقية لهذا الأسلوب يُكْتَسَب من الأواصر القوية بين الألفاظ والمقام الذي تعرض له وعدل به من صياغة إلى صياغة أخرى اعتقاداً من المتكلم بأنها الأفضل في قواعد الخطاب والمقام المناسب بينه وبين المتلقي (المخاطب)... وهذه هي المزية الجمالية له دون غَيره من أساليب الكلام؛ فهي وظيفة جمالية ومعنوية في آن معاً.

2 ــ الدعاء:

الدعاء ـ في اللغة ـ النداء، والفعل: دعا يدعو... وهو أحد أساليب الإنشاء؛ بيد أنه قد ينزل الخَبر منزلة الإنشاء في الدلالة ـ وإن اتخذ صورة الخبر في اللغة ـ لهدف الدعاء له أو التعجيل به... ونستعمل ـ غالباً ـ في هذا الأسلوب صيغة الفعل

الماضي، فنحن حين نذكر الرسول الكريم نقول:(ﷺ) أي: (صلِّ وسلِّمْ...). وحين نذكر الخلفاء الراشدين نقول: (رضي اللّه عنهم، ورحمهم) أي: (ارضَ عنهم وارحمهم). ونقول: (كرَّم اللّه وجهه)؛ أي: (نزّههُ، وأَعلِ مقامه) ومثله (الصبر جميل) وكأنما يقول له: اصبر، وتجمّل بالصبر، فلا شيء أجمل منهما.

ولأجل التأدب مع اللّه واليقين بتحقيق الدلالة وكأنها واقعة يستعمل المتكلم في ذلك كله الأسلوبَ الخبري الذي يفيد الدعاء... ولا يجوز أن يقال له: إنه كاذب أو صادق... ما يجعله يهدم الدلالة اللغوية والبلاغية المعروفة للناس، لإيجاد دلالة بديلة. ولم يقتصر هذا الغرض على الفعل الماضي الذي يفيد وقوع الحدث حقيقة؛ إنما يستخدم لها الجملة الاسمية المثبتة على السبيل نفسه؛ كقولنا للأمير أو الرئيس ونحوهما: (المغفرة لك، والعفو منك)... أي: (اغفر عني؛ واعفُ؛ لأنك أنت من تملك ذلك)... وفي الدعاء قال طرفة بن العبد مستعملاً الفعل الماضي في السقيا:

فسقى ديارَكِ غَيْرَ مُفْسِدِها   صَوْبُ الربيعِ ودِيْمَةٌ تَهْمي

فهو لم يكتف بالدعاء للديار بالسقيا وإنما احترس في كلمة (غير مفسدها) لما عرف عند الناس وفي المقدمات الطللية لقصائد القدماء عن المطر من تخريب الديار.... وقال مروان بن أبي حَفْصة:

سقى اللّه نجداً والسلام على نجد   ويا حَبَّذا نَجدٌ على القُرْب والبُعْد

ونجد صيغة الأسلوب الخبري الواقعة موقع الإنشاء في القرآن الكريم تتكرر كثيراً كقوله تعالى: ﴿لا تَثْريبَ عليكم اليوم يغفر اللّه لكم﴾ (يوسف 92/12). فاليوم الذي هو مظنة التقريع لا تثريب فيه ولا ذهاب بماء الوجه، ثم جاء بجملة خبرية دعائية تدعو لهم بالمغفرة (اليوم يغفر اللّه لكم). وهذا أليق بحال المخاطب لإدخال السرور إلى القلب والنفس[29].

ولعل الدارس الممعن في هذا الأسلوب البلاغي (إنزال الخبر منزلة الإنشاء) لا يمكنه أن يتوقف عند الصورة اللغوية الخارجية لأنها مكونة من صورتين

obeikandl.com

قريبة وبعيدة متخيلة... ولا تناقض فيما بينهما؛ لأن التوافق النفسي هو الذي يوازن بينهما في الوظيفة ويثير العقل لمعرفة مراتب الكلام وتغيّر صورته من لغة الإنشاء إلى لغة الإخبار التي تعدُّ أكثر ثباتاً في تحقيق المراد؛ وتطبيقاً للمفهوم البلاغي (مطابقة مقتضى الحال)؛ وإن بدا للوهلة الأولى أن هناك جموداً في الشكل...

ومن القدرات الجمالية العجيبة لهذا الأسلوب اجتماع عدة أشكال من الوظائف في وقت واحد؛ فقد يحمل معنى التفاؤل؛ ومعنى الدعاء والتعجيل به كما نجده في إحدى اعتذاريات النابغة للنعمان بن المنذر، كقوله:

أَتاني ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ـ أَنَّكَ لمتني وتلكَ التي أَهْتمُّ منها وأَنْصَبُ

فجملة (أبيت اللعن) تحية كانت تستعمل دعاء للملوك وهي أليق في خطابهم من غيرها؛ وتعني: (أَبَيْتَ أن تأتي ما تُلْعَنُ به). وقد استعملها الجاهليون بصيغة الماضي المثبت لأن الدعاء بها واقع لا محالة؛ كما أن هذه التحية في معرض سياق البيت تعزز فكرة التفاؤل في نفس الشاعر، وهي تستفز المشاعر التي تؤرقه وتبعث في نفسه الهموم، فلعل هذه التحية تكون مدعاة للتفاؤل بالصفح عنه حين يثبت له صفة الارتفاع عن أي ذنب ارتكبه...

فهذا الأسلوب متفرد بجمالية خاصة لما يملكه من قدرات تعبيرية بارعة تقتنص دفقات الشعور وتستجلي مكنوناته وآفاقه في زحمة اختلاطها بإيحاءات عديدة تنسجم مع المبنى تركيباً وإيقاعاً ومع القاعدة البلاغية المشهورة (لكل مقام مقال)... وهذا ما يتجسد أيضاً فيما يأتي.

3 ـ الاحتراز من صورة الأمر تأدباً واحتراماً للمخاطب :

الاحتراز مصدر، وفعله احترز، واحترز من الشيء وتحرَّز منه: جعل نفسه في موضع حصين. وهذا أسلوب بلاغي ليس له صورة لغوية معينة، وإنما يفهم من السياق والمقام معاً... وبغيرهما قد يضل المتلقي له... فحين ينظر الأمير في ساعته، نقول له: (يَنْظر مولاي في أمري)؛ فكأننا احترزنا من الخطاب بصيغة

الأمر فقلنا ذلك بدل أن نقول له: (انظر في أمري بدل أن تنظر في ساعتك)... ومثله قول العبد لسيده: يقضي سيدي حاجتي... فالحاجة مقضية من السيد المطاع -لامحالة -لأن المتكلم لا ينتظر منه منزلة ومكانة ورجاحة عقل، وكرم نفس إلا أن يلبي له ما طلبه.

ثم إن هذه الصورة من التأدب ليست مقتصرة على مخاطبة الأدنى للأعلى، فقد يقول الزميل لزميله إذا لم يرد تلبية رغبته التي حضر لها: (تأتيني غداً)؛ فهو يحمله بألطف عبارة وأليق مقام من الاحترام على عدم قضاء حاجته من دون أن يسوّف أو يخيّب رجاءه أو يأمره بالإتيان أو يرده حانقاً غاضباً... فالتركيب اللغوي الجمالي في هذا الأسلوب يلائم الحالة النفسية للمتلقي من جهة؛ ويبين أن المتكلم بهذا الأسلوب يملك كثيراً من اللياقة والحصانة، والخلق...

وقد يكون المتكلم في منزلة أعلى من المخاطب ويقول له في شأن ما: يمكن عرض ما ترغب فيه؛ كأن المراد: اعرض رغبتك وسوف نرى ما الذي نفعله فيها...

فاللغة في هذا الغرض تضطلع بوظيفة جمالية وفكرية ونفسية؛ وتتألق بجاذبية خاصة تتشكل في صورة العلاقة بين الصورة والدلالة والمقام... وبناء عليه فالجمال البلاغي اللغوي حريص على ألا يحدث فجوة حادة بين المتكلم والمخاطب، بل يريد أن يخلق دفئاً كبيراً من الاتصال العاطفي بينهما؛ وما أحوجنا هذه الأيام لمثل هذا الأسلوب الحضاري اللطيف في الخطاب... وربما يكمن هذا المعنى في الموضع الرابع بما يحمله من مفهوم توليد المعنى الحاصل من اجتماع عدة عناصر في سياق النسق البلاغي البعيد عن الغرابة والمخالفة والتعقيد والتنافر...

4 ـ التنبيه على تيسير المطلوب لقوة الأسباب؛ والأمر به والحث عليه:

يندمج في هذا الغرض مختلف الرؤى الفكرية والنفسية لتؤكد حدوث

الشيء؛ وما انتهى إليه بعد أخذ الأسباب كاملة... ويكثر استعمال هذا الأسلوب عند الكبراء والسادة والممتازين؛ كقول الأمير لجنده: (تأخذون بنواصيهم، وتنزلونهم من صياصيهم...) أي (خُذوهم بنواصيهم؛ وأنزلوهم من صياصيهم). فالخطاب اللغوي البلاغي يستند إلى انزياح دلالي متنوع في الأمر وامتثال الجنود له، وسرعة الإنجاز بالإجهاز على الخصم وإخراجه من حصنه... ثم إن هذا الخطاب يحترم مكانة الجنود ويرتفع بها إلى درجة كبيرة، حين يُغريهم بإنجاز المهمة.

وهذا الأسلوب مبثوث في القرآن الكريم بكثرة؛ كقوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أُولي الألباب﴾ (البقرة 179/2).

والمراد من ذلك (اقتصوا من المجرمين ليكون ذلك ردعاً لغيرهم، وليحيا المجتمع حياة مطمئنة...) فليس المراد إثبات حالة الاقتصاص لذاتها... وعليه قولنا: (الاجتهاد خير لكم)؛ فالمراد (اجتهدوا هو أنفع لكم من التمادي في الكسل والعبث).

فالتركيب البلاغي في هذا الأسلوب يعد أكثر شمولية في الدلالة من غيره لأنه يستجلي عناصر دلالية كثيرة متوضّعة في التجربة النفسية والاجتماعية والفكرية. ومن ثم فالأسلوب البلاغي بما ينطوي عليه من عدول لغوي -يحقق الأثر في المتلقي (المخاطب) ويحدث في مشاعره وعقله مواضعات أو تحولات جديدة وفاعلة تتوافق نتائجها مع أهداف المتكلم على نحو غير قليل... وهو ما يلبي حاجة الدراسات الأسلوبية الحديثة، علماً أنه السابق.

وشبيه به ما نراه في الموضع الخامس، وهو الآتي.

5 ـ المبالغة في الطلب للتنبيه على سرعة الامتثال:

يعتمد هذا الأسلوب على الوظيفة التي يؤديها من خلال العناصر التعبيرية ودلالتها التي تستجيب لمقتضى الحال، وبخاصة حين يعتمد على حساسية الصياغة اللغوية التي توخاها. فالمتكلم يحاول إيصال فكرة معينة بصيغة دلالة

الخبر لهدف ما، والمراد منه الأمر، وتنفيذ مضمُونه كقوله تعالى: ﴿لا يَمَسّه إلا المطهرون﴾ (الواقعة 79/56). فلا النافية أفادت المبالغة في النهي، كأنهم نُهوا فامتثلوا؛ ثم أخبر عنهم بالامتثال عند ما جاء بأداة الحصر والخبر بعده؛ فالمطهرون وحدهم يمسون القرآن ويقرؤون فيه. فالصيغة اللغوية البلاغية في ظاهرها قد توهم بأنها صيغة إنشائية، بيد أن حقيقتها صيغة خبرية في محتواها، فلو حذفت (لولا) وأداة الحصر (إلا) لثبتت الدلالة الخبرية للأسلوب الذي يراد منه التوكيد والمبالغة في الاحتراز، وكأنه قال: (يمسه المطهرون فقط). ومثله قوله تعالى: ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾. فالمقصود (محمد رسول) ومثله قوله تعالى: ﴿إذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم﴾ (البقرة 84/2).

فالله سبحانه لم يقل: (لا تسفكوا الدماء، قصداً بالمبالغة في النهي، ومن ثم لسرعة الامتثال له) كأنه قال: (الميثاق عَدْم سفك الدماء).

ففي هذا الأسلوب يبرز لنا قدرة المتكلم على احتواء الانفعالات المتباينة؛ وهو يعمد إلى توجيه الفكر إلى ما فيه صلاح النفس... وحين يسعى إلى تنظيم العلاقات بين الكلمات إنما ينظمها بين النفس وما تحمله من أفكار وتلقيه إلى المتلقي، لتحافظ على جسور الاتّصال بينهما. فالصورة الجمالية تتركز في طبيعة الإحساس بها؛ وقد تحوّلت من مجرد شعور انفعالي إلى فكرة معنوية قوية التأثير والفعل... وهو عينه ما نراه فيما يلي.

6 ـ التوجيه والإرشاد:

يحمل هذا الأسلوب روابط نفسية كبرى، لما يدور فيها من تفاعلات وأفكار تلد وتموت أو تتغير... ولهذا يسعى المتكلم إلى إعادة تكوين الأفكار وخلقها بشكل جديد... ويصبح إنزال الخبر منزلة الإنشاء في هذا المقام من أصح الأساليب تعبيراً عنها وأكثرها جمالاً حين يؤكد صاحبه صفة لازمة له أو لقومه أو للمخاطب بما ينبغي عليه الحرص عليه؛ كما نجده في قول الشاعر أبي أُذينة اللخمي:

وكأن أحسنَ من ذا العفو لو هربوا لكنهم أنفوا من مثلك الهربا

فالقوم أشرف لهم أن ينتصروا على شجاع مقدام من أن يقال: إنهم فروا، لذلك رفضوا الفرار، لاعتقادهم بالانتصار، ما يعني أن دلالة فعل (أنفوا) هي النفي لغة ودلالة، وإن كانت الصيغة خبرية. وهو أسلوب مطرد في القرآن الكريم لغرض الإرشاد والتوجيه كقوله تعالى: ﴿أَوْلَى لك فأولى❖ ثم أَولى لك فأَولى﴾ (القيامة 34/75 ـ 35). فهاتان الآيتان نزلتا بأبي جَهْل بعد أن صدَّ عن ذكر الله وذهب إلى أهله يتمطَّى.. فجاء الإرشاد بعد ذلك لكل إنسان لكيلا يفعل فعله، حين دعا عليه بالويل والثبور ﴿أَوْلى لك...﴾ فسيأتيه بعد كفره ما يكرهه[30].

فهذا الأسلوب يثير في المتلقي أَنْماطاً من عناصر الدهشة لما ينطوي عليه من أبعاد فكرية ونفسية؛ وهو يستعير أسلوباً لأسلوب آخر...

أما الغرض السابع فإنه يعيدنا إلى الغرض الأول على نحو ما؛ لأنه شبيه به في الصيغة اللغوية وإن اختلف الغرض.

7 ـ **إظهار الرغبة في الشيء والحرص على وقوعه:**

إذا عظمت رغبة المتكلم في شيء وكثر تصوّره له حتى يخيل إليه أنه حاصل لا محالة استعمل له صورة اللفظ بصيغة الماضي؛ كأن نقول للغائب عنا: (رزقني الله لقاءك...) فكأن اللقاء واقع لديه؛ ولهذا استعمل الفعل الماضي الذي يفيد ثبوت الحدث ووقوعه؛ وعليه قول النابغة الذبياني في الاعتذار إلى النعمان بن المنذر:

إذاً، فعاقبَني ربِّي مُعَاقبةً قَرَّتْ بها عينُ مَنْ يأتيكَ بالحَسَدِ

إن الصراع النفسي الذي اعتلج في نفس النابغة ناتج من خشيته من غضب النعمان عليه؛ فتخيل أن العقاب قد نُفِّذ فيه، وفرح الوشاة والعواذل بهذا العقاب....

فالبنية الجمالية لهذا الأسلوب تخلق العناصر المكونة لها فنياً في نطاق الوظائف التي تؤديها... إنها بنية تنصهر في الذات الفاعلة ليتحد الهدف بالمقام وهما يتجاوبان مع التوترات النفسية المتعددة... وبناء عليه يتخذ كل أسلوب وحدته الدلالية والتأثيرية الكاملة في ضوء مكوناته التي يختلف فيها عن أسلوب آخر... ومن ثم نحاول أن نسعى إلى فهم الانزياح في الصيغ التي يركب منها كل أسلوب.

وهذا كله يمكن أن يتجلى في المواضع التي ينزل فيها الإنشاء منزلة الخبر وهو حديثنا القادم.... وإن كان الحديث عن الاتجاه الأول لا يتوقف عند الصيغ والأغراض التي عرضنا لها، وقد استقينا أكثر صيغه من الأدب الجاهلي لنؤكد مرة بعد مرة أن الذائقة الأدبية للجاهليين لم تكن ذائقة حسية مادية فحسب؛ وإنما ذائقة نفسية وفكرية مجردة، وكذا ظهرت في أساليبُ البلاغةِ صورة جمالية بديعة تطورت بتطور تلك الذائقة المرهفة.

2. وضع الإنشاء موضع الخبر

هذا الأسلوب البلاغي معاكس تماماً في أنماطه اللغوية للأسلوب السابق ولكنه مثله لم يخلق للمعاني الثانوية، وإنما وضع لأغراض مقصودة وأوليَّة ظاهرة وباطنة، جلية وخفيَّة ما يجعل الانزياح فيه يختّلف كل الاختلاف عما نجده في الاستعارة أو الكناية... وهو كذلك أسلوب يمنح الجملة الإنشائية فضاءات عدة في معرض الانزياح للبنية اللغوية الجامعة لمعانٍ مستكنة فيها... ويعبر عن عظمة العمق الذي تقوم عليه في أهدافها كلها، وأبرزها:

1 ـ إظهار العناية بالشيء والاهتمام به:

يرتبط هذا الأسلوب بالوعي الكامن في ذهن المخاطب كما يتصوره المتكلم ليضبط فيه القدرة على التحكم بالغرض والعناية به لعظيم أمره وجليل شأنه... فالأسلوب اللغوي البلاغي في هذا المقام يمنح الدلالة قيمتها

الجمالية من جهة خلق النسيج المتجانس بين التجربة الشعورية للمخاطب وبين الوظيفة المختزنة للغايات... ويظهر لنا أن هذا الأسلوب مبثوث بكثرة في آيات القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿قل أَمَر ربي بالقِسْط، وأقيموا وجوهكم عند كل مَسْجد﴾ (الأعراف 29/7).

فالأسلوب الوارد في الآية: ﴿أقيموا وجوهكم...﴾ أسلوب إنشائي من جهة الصيغة اللغوية؛ وكان الحق أن تكون (وإقامةِ وجوهكم) عطفاً على ﴿أمر ربي بالقسط﴾. وحين جاءت الصياغة إنشائية ظلت الدلالة خبرية، ولم يكن الانحراف اللغوي في إقامة الإنشاء مقام الخبر إلا للعناية بأمر الصلاة لجلال شأنها وعظيم قدرها في الدين... وكأنما أراد القول: "اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها في كل وقت سجود أو في كل مكان سجود، وهو الصلاة"[31].

فالمقام مقام إخبار ولكنه جاء بأسلوب إنشائي لذاك الغرض؛ ومثله قوله تعالى: ﴿وقال اركبوا فيها، بسم الله مَجْراها ومُرْساها﴾ (هود 41/11).

فالمقام للخبر وكأنه قال: ﴿فركبوا فيها يقولون: بسم الله وهي تجري بهم..﴾[32]. ولكن العناية بأمر نوح ومن معه، وإظهار الاهتمام به حوّل صيغة التعبير من أسلوب إلى أسلوب.... وهو تحوُّل غير آلي؛ إنه تحوُّل حيوي وفعّال. فالحدث هنا محقق وواقع بعكس الغرض السابق من أغراض إنزال الخبر منزلة الإنشاء... ولكن المتكلم يحرص على الانزياح في النسق التعبيري ليبرز لطائف بلاغية لا تكمن في الأسلوب اللغوي الذي يقتضيه المقام الخبري.

ومثل هذا اللطيفة البلاغية نجدها في الغرض الثاني من مواضع إنزال الإنشاء منزلة الخَبر...

2 ـ التبكيت:

التبكيت هو المبالغة في التعنيف واللوم وجهاً لوجه، والفعل منه بكَّت يبكِّت تبكيتاً.. وهو يثبت هذا الأسلوب مدة التأثيرات العاطفية التي يتركها

في صميم النفوس، فهو ليس مجرد وسيلة لنقل رسالة من الرسائل... إنه ينحرف عن طبيعته المباشرة ليلبي هدف التبكيت... كما يتوخاه المتكلم وفق حال المخاطب ومقامه.

إنه أسلوب يجمع جملة من العناصر الجمالية التي تستجيب لعواطف المتكلم ومقاصده وترسي هدفاً ما عند المخاطب، وهي تخاطب عواطفه قبل عقله... وعليه قوله تعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً وليَبْكوا كثيراً﴾ (التوبة 82/9).

فالمقام ـ هنا ـ للخبر لأن الآية تتحدث عن المنافقين الذين قعدوا عن نُصْرة المؤمنين؛ فرحين بما فعلوه، وكان ينبغي القول: "فسيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً، إلا أنه أخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حَتْمٌ واجب لا يكون غيره"[33] وعلى سبيل تبكيت أعمالهم وتوبيخ مقاصدهم... ومثله قوله تعالى: ﴿فهل نجازي إلا الكفور﴾ (سبأ 17/34) وكأن الله سبحانه قال: (للكافر وحده العذاب). فالتأكيد هنا جاء على تبكيته وإدخاله نار جهنم. ولكي يصل إلى هذا الهدف أنزل الإنشاء منزلة الخبر حتى لا يحتمل أمراً آخر؛ لأنه ثابت عليه ولا تبديل له.... فالمقام للخبر والأسلوب أسلوب إنشاء لا يحتمل الصدق أو الكذب... وعليه قول الشاعر:

ولائمةٍ لامتْكَ يا فَضْلُ في النَّدى فقلتُ لها: هَلْ أثَّر اللَّوْمُ في البَحْرِ؟

فجمال الصورة الشعرية، ثم البلاغية يكمن في صميم التضاد الضمني الذي انطوى التركيب عليه؛ ثم شحنت العاطفة في المتلقي للوصول إلى الهدف الذي تبتغيه. وهذا ما نراه في التحاشي من المساواة؛ أي التنزيه عنها.

3 ـ **التحاشي والاحتراز من مساواة اللاحق بالسابق:**

تمتاز اللغة العربية بعدد من أساليب البلاغة باختلاف المقاصد؛ كما تختلف صياغة كل جملة بما يتجه إليه المضمُون... وقد لاحظت العرب أن الكلام يكون بمقدار الحاجة إليه... ولهذا وجدت أساليب الإطناب والإيجاز... والمساواة[34]. ولكن الاحتراز من المساواة هنا يصبح وسيلة بلاغية وهدفاً في

وقت واحد... فالمتكلم يحرص على ألا يتساوى معنيان في الدلالة، لهذا يلجأ إلى تغيير صياغة الجملة؛ فيجمع بين الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي في الصياغة؛ وإن كان المقام مقام إخبار.. كقوله تعالى: ﴿قال: إني أُشهدُ اللّه؛ واشهدوا أَني بريءٌ مما تُشركون من دونه﴾ (هود 54/11) لم يقل: وأشهدكم، تحاشياً عن مساواة شهادة اللّه تعالى بشهادة العباد "لأن إشهاد اللّه على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده. أما إشهادهم فما هو إلا تهاونٌ بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب؛ فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة".

وتوضيح ما قاله الزمخشري "أن صيغة الخبر لا تحتمل إلا الإخبار بوقوع الإشهاد منه، فلما كان إشهاده للّه واقعاً محققاً عبَّر عنه بصيغة الخبر لأنه إشهادٌ صحيح ثابت؛ وعبّر في جانبهم بصيغة الأمر التي تتضمن الاستهانة بدينهم وقلة المبالاة بهم، وهو مراده في هذا المقام معهم..."[35].

ونرى أن ما جاء في هذا التوضيح وما قاله الزمخشري محتملُ الدلالة؛ ولكن ما هو أحق منه أن إشهاد اللّه حقيقة؛ وكذلك إشهاده لهم، وإنما عدل إلى صيغة الأمر للتمييز بين الخطاب الإلهي وخطابه لهم لعدم المساواة بينهما... فأراد أن يعبر عن الخطاب الإلهي بصيغة الخَبر، وهي أَجَلُّ وأَوْقَر من صيغة الأمر، وإن كان فيها من الدلالة إقامة الحجة عليهم.

وهذا الأسلوب كثير في القرآن الكريم يؤدي إلى وظائف نفسية وفكرية كثيرة[36]؛ ومثله قول طرفة بن العبد:

كُـلُّ خليـلٍ كنْـتُ خالَلْتُـهُ   لا تَـرَكَ اللهُ لـه واضِحَهْ

فالشاعر عَدَل عن الأسلوب الخبري لما يفيد من الحقائق، واستمرار الفعل، وثباته على أَمْر آخر؛ وهو نفيه بالدعاء... فالشطر الأول إثبات للصداقة والمودة أما الثاني فنفيٌ لها. وقد أراد بتبديل الأسلوب أن يثبت عدم المساواة

بينهما وفَرَّ من ذلك تحاشياً لهذا الاعتقاد، وإن كان المقام مقام إخبار. ولهذا فإن الاتجاه إلى الكلام مفرداً أو مركباً لا ينعزل بأي حال من الأحوال عما يدل عليه، وجمالية الصياغة وأساليبها تنبع من قدراتها على الإيحاء بدلالات كبيرة.

4 ـ الترغيب في الشيء والحث عليه:

تؤكد اللغة ـ عامة ـ أنها تتصف بنظام ما لنقل رسالة ما... وقد تكون في الوقت نفسه أثراً فنياً... وهذا الذي ثار في ذهن (رومان جاكبسون) فسأل: "ما الذي يجعل من رسالة لفظية أثراً فنياً؟"[37].

وقد ثبت لنا في عدد من أساليب البلاغة أن اللغة حاجة نفسية ثم فكرية؛ قبل كل شيء، وهي تعبر عن الشعور الذاتي وحاجاته بكل وضوح...

وحين ينظر الباحث إلى اجتماع صياغتين لغويتين في جملة واحدة ـ والمقام مقام واحد في الدلالة ـ يثور في نفسه سؤال: ما سبب ذلك...؟ فقد تجمع الجملة بين الخبر والإنشاء، أو بين النفي والإثبات[38] أو بين الأفعال والأسماء وغير ذلك... وقد توقف علماء البلاغة عند هذا التحول في الصياغة وسمي بأسلوب الالتفات[39]... وبعضهم قصره على انصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة.

فحين يكون المتكلم آخذاً في معنىً، ويعترضه عارض يغير في أسلوب الصياغة ليلفت الانتباه إليه... ويحث عليه ويرغب فيه... وهذا هو أسلوب الالتفات. أما في اجتماع الخبر مع الإنشاء فإن الهدف المعروف منذ البداية كان وراء تبدل الأسلوب، والغاية هي هي في أسلوب الالتفات... كقوله تعالى: ﴿وإن تَعفوا وتَصْفحوا وتغفروا فإن اللّه غَفورٌ رحيم﴾ (التغابن 14/64).

وقوله: ﴿فاعف عنهم واصفح إن اللّه يحب المحسنين﴾ (المائدة 13/5).

فالعفو والصفح والغفران والرحمة ألفاظ متقاربة في المعنى، وكذلك العفو والصفح والإحسان... وإنما جاء التشديد على ذكرها ترغيباً فيها وحثاً عليها وإن اختلفت الصياغة في الابتداء بالإنشاء والانتهاء بالخبر... فالسياق والمقام لم

يتغير.

فأياً كانت المقاصد والأساليب فإنها تثبت أن إنزال الخبر منزلة الإنشاء أو العكس إنما يؤدي وظيفة ما، في الوقت الذي يكسب الجملة جمالاً أخاذاً؛ لأنها كسرت القاعدة في الصياغة الرتيبة، وتحولت من شكل إلى شكل... فصدق عليها ما قاله جاكبسون. فالصورة الجمالية الجديدة صورة انبعاث الرؤية الذاتية في تعبير شفاف وخلاّق يأخذ موقعه في نفس المتلقي كما ينبغي له بكل دقة وارتياح.

5 ـ **النُّصْح والوَعْظ:**

قد يجتمع الخبر والإنشاء في غرض التوجيه والنصح؛ وغالباً يقع هذا الأسلوب في الشرط، وتكون جملة الجواب ـ في أكثر الحالات ـ إنشائية؛ كقولنا: (كلما جاء زيد فأكرمه...) فالإنشاء يجسّد نمطاً إيقاعياً جمالياً يرتفع في النفس بترداد حدة النغم فيه... وقد تكون جملة الجواب خبرية كقول زهير:

وقلْتُ: تَعلَّمْ أَنَّ للصَّيْدِ غِرَّةً وإلاَّ تُضَيِّعْها فإنَّكَ قاتلُهْ

فجملة الجواب ـ هنا ـ تطالعنا بالتعبير عما يتراءى للمتكلم ويعتقد بأن المخاطب بحاجة إلى ما يراه نصيحة منه وإرشاداً... وبهذا يتحرك التركيب البلاغي في عالم الوجدان في صميم علاقة جدلية مع الفكر.... فالبنية اللغوية البلاغية منصهرة بالمشاعر الجياشة لانتظام صلاح الآخر عن طريق إرساء رؤية فكرية دقيقة تأخذ طريقها إليه لتعمق وعيه بالحقائق والجمال في وقت واحد. ولعل هذا الأسلوب لا يَعْني بأنه يخرج الكلام بخلاف مقتضى الظاهر؛ لأنه يتجه به إلى المخاطب الذي وقع في محذورات شتى، ليؤكد له ما الذي يستوجب عليه فعله؟!

ومن هنا يمكن للمرء أن يقول: إن ذلك كله يصدق على أي موضع يوضع

فيه الإنشاء موضع الخبر، أو العكس لغرض أخلاقي أو تربوي أو اجتماعي... أو...

فأساليب البلاغة - بهذا الوعي - تحقق وظيفة مركبة وكبرى في عملية البناء الفردي والجماعي، الفني والفكري... ويغدو كل أسلوب منها على ارتباطه بذلك أسلوباً جمالياً مثيراً.

تلك هي صورة من صور أساليب البلاغة في الخبر والإنشاء، ومن ثم في إنزال أحدهما مكان الآخر... وهي تعبر عن أجَلّ الغايات، وأنبل المشاعر... ولعل جماليتها البديعة تتولد من خصائصها اللغوية والبلاغية سواء عبَّرت عن رؤية فردية أم رؤية جماعية... ومن ثم فهي تتوجه إلى المخاطب (المتلقي) تحت إهاب النصح أو الإرشاد أو التبكيت أو غير ذلك.

ثم تبقى تلك الصور قادرة على البوح بالمشاعر والحاجات العميقة كلما تسربلت بخطوط أو ألوان متألقة تجسّد حسّاً حياً ومتطوراً يعيش اللحظات الجمالية بتدرج فكري ونفسي مطرد يدرك العلاقات المتباينة و المتفقة فيها على السواء. ونؤكد قائلين: تلك هي صورة لأساليب البلاغة العربية في هدفها الجمالي؛ وفي قدرتها على إبراز تطور الفكر الفني العربي وارتقائه... فلم يكن في مراحله كلها بما يختزنه من أسرار فنية وأدبية... أقل من أي فكر آخر. فقد تبين لنا أن كل أسلوب بلاغي جمالي عبّر عن إنزال الشيء مكان الآخر إنما انتهى - بما لا يقبل الشك - إلى إثبات مدى تمكّن العرب من الجملة اللغوية والبلاغية التي تنبئ بالصور الفكرية العظيمة؛ والدفقة الشعورية الفياضة.... فالجملة اللغوية البلاغية في الأسلوب السابق كانت موحية بجمالية المفارقات الدلالية؛ وكأن البنية التركيبة لا تقوى إلا باجتماع الشيء وضده، وعلى المتلقي أن يستنبط إيحاءاتهما الجمالية وغيرها. فأي مكاشفة جمالية أو بلاغية أو أسلوبية أو نقدية...لا تنقاد للقارئ إلا بحسن التدبر؛ والقراءة التي تحيط بالأبعاد النصية، ومكابداتها عند المتكلم ثم عند المتلقي... فالنص الجميل يتفجر بتقاطعات كثيرة تحتاج إلى تأمل وظائفها وأهدافها بعد

استيعاب صيغها اللاهبة في عملية الانزياح أياً كان نوع الانزياح.

هذا هو الوجه الجمالي البلاغي الذي أدركه الجرجاني بقوله: "وإنه ليأتيك من الشيء الواحد بأشباه عدة ويشتق من الأصل الواحد أغصاناً في كل غصن ثمر على حدة"[40]. إنه إدراك جمالي يقوم على استنباط العلاقات الدلالية التي يوحيها النسق البلاغي؛ ليس بوصفه نسقاً لغوياً فقط، وإنما بوصفه صورة بلاغية مشحنة بالرؤى والانفعالات كما دلت عليه أمثلته، وأسلوباً تتعدد أنماطه واتجاهاته ومستوياته البنيوية والتعبيرية والسياقية والوظيفية ليؤكد وجوده في الدرس الأدبي والنقدي والأسلوبي كما انتهى إليه عدد من الدارسين المحدثين[41]. ولا يخفى على أي دارس أو ناقد أن العلاقة الجوهرية التي تربط فاعلية كل دراسة بالأخرى هي علاقة التجربة الثقافية والنقدية بالزمن الذي يعيش فيه صاحبها؛ ما يؤكد أن الوجود الزماني يعدُّ شرطاً لكل مؤلف أو كاتب أو أديب أو بلاغي أو ناقد قادر على منح دراسته فضاءات جديدة يمكنها أن تجيب على أسئلة الأجيال جيلاً إثر جيل... وعلى كل من يتصدى لدراسة نصّ ما أن يواجه تركيب عناصره القريبة والبعيدة؛ الحاضرة والغائبة، الحقيقية والمجازية، الواقعية والمتخيلة وإجراء فحص عميق لتقاطعات عدة بين الدراسات الأسلوبية والجمالية وغيرها... للوصول إلى ما ينطق به النص من رؤى وجماليات ومقولات...

ولعل ما قدمناه يحدُونا بقوة إلى بيان جمالية الخبر والإنشاء مفهوماً ودلالة واكتناه أغراضهما وأساليبهما الحقيقية والمجازية وفق رؤية متجددة، بادئين بأسلوب الخبر.

❖❖❖

(((حواشي الفصل الأول من الباب الأول)))

(1) الحيوان 90/4 وانظر فيه 9/1 و132/3.

(2) انظر بيان إعجاز القرآن 26.

(3) انظر النكت في إعجاز القرآن 98.

(4) انظر إعجاز القرآن 169.

(5) انظر المغني في أبواب التوحيد والعدل 199/16 وما بعدها.

(6) انظر الصاحبي لابن فارس (ت 395 هـ): 279 والإمتاع والمؤانسة (121/1) مناظرة السيرافي (ت 368 هـ) مع يونس بن متَّى.

(7) انظر دلائل الإعجاز 55، 60 و81 و87 و315 . 316 وانظر ما يأتي من الفصل الثاني حاشية (30).

(8) كتاب: مفتاح العلوم للسكاكي، والإيضاح في علوم البلاغة، والتلخيص في علوم البلاغة للقزويني، والمطول (الشرح المطول على التخليص) للتفتازاني.

(9) الكشاف 1/ك و11، وانظر: البلاغة تطور وتاريخ. د. شوقي ضيف. 221 و271 و288.

(10) انظر نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز 36.

(11) انظر مفتاح العلوم 247 و250 و414.

(12) انظر المصباح.

(13) مفتاح العلوم 247 وانظر الإيضاح 15.

(14) الإيضاح 15.

(15) انظر: عروس الأفراح للسُّبْكي ا/51. 53.

(16) انظر كتاب الدكتور شوقي ضيف (البلاغة تطور وتاريخ) وكتاب الدكتور أحمد مطلوب (أساليب بلاغية)، ومع البلاغة العربية في تاريخها للدكتور محمد علي سلطاني.

(17) انظر دلائل الإعجاز 508. البلاغة تطور وتاريخ 219 و270 وتاريخ النقد الأدبي 214/2. 235 ومن تجليات الخطاب البلاغي 49 و72 وما بعدها.

(18) انظر المطول 43 والبيان والتبيين 131/3 -132. وأساليب بلاغية 78.

(19) انظر البيان والتبيين 7/2. 8 ودلائل الإعجاز 508 وانظر الصورة الشعرية. سيسيل دي لويس. 23 والمنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي 78 وفلسفة الجمال في الفكر المعاصر 42. 44 و68.

obeikandl.com

(20) انظر الإيضاح 18. 21.

(21) انظر أدب الكاتب 4.

(22) انظر البرهان في وجوه البيان 113.

(23) الصاحبي في فقه اللغة العربية 179.

(24) انظر مفتاح العلوم 251. 252 والإيضاح 18. 21.

(25) الإيضاح 18 وانظر شروح التلخيص 183/1 وكشاف اصطلاحات الفنون 16/2. 18.

(26) فجر الإسلام 144 وانظر بنية اللغة الشعرية -15 ومقالات في الأسلوبية 37 وعلم الأسلوب مبادئه وإجراءاته 99.

(27) انظر مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ 25.

(28) انظر المغني في أبواب التوحيد 299/16. 301 والبرهان في علوم القرآن 398/3.

(29) انظر الكشاف للزمخشري 342/2.

(30) انظر المصدر السابق 193/4.

(31) المصدر السابق 75/2.

(32) المصدر السابق 270/2.

(33) المصدر السابق 205/2. 206.

(34) انظر تحرير التحبير 198 و454 و459.

(35) الكشاف 276/2 والرأي الأصوب مع الزمخشري.

(36) انظر مثلاً: آل عمران 52/3 و58 والمائدة 111/5 والأعراف 172/7 وهود 17/11.

(37) قضايا الشعرية 24 والنظريات الموجهة نحو القارئ 103 . 104 وهسهسة اللغة 167 . 170 وحاشية رقم (109) من الباب الثاني.

(38) انظر تحرير التحبير 377 و593.

(39) انظر تحرير التحبير 123 والكشاف 62/1.

(40) أسرار البلاغة 114. 115.

(41) انظر مثلاً (البلاغة والأسلوبية) ص 329 والبلاغة والأسلوبية -نحو نموذج سيميائي لتحليل النص -ص51 ومقالات في الأسلوبية 37 وعلم الأسلوب مبادئه وإجراءاته 18 و 99.

***

obeikandl.com

obeikandl.com